ضحك

بقلم
أمين ريان

نحن نمارس الفكاهة منذ زمن بعيد

حتى ليمكن أن تعدنا .. (أنا وعلى زهير) من الممثلين المحترفين ...

وكان المفروض أن نصبح نجوما الآن ... فهذا ما حدث لزملائنا ... وحتى أولئك الذين كنا ننظر إليهم ... من عل أصبحوا نجوما ...

لا يخفى عليك طبعا أن في كل مجتمع أناسا ينظرون إلى آخرين من عل فليس الأمر مجرد ضحك ... وإلا انقلب إلى هزء وسخرية ... وفي مجالنا ... مجرد أن يصبح الشخص مضحكا في الشوارع والمقاهي بعيدا عن خشبة المسرح أو الاستديو ... فإننا لا نعتبره فنانا ... بل نعتبره مسخة ... وننظر إليه من عل

ولست أدرى هل هو الحظ ... أم ماذا ... ذلك الذى جعل بعضهم ينظر إلينا من عل فى هذه الأيام ... ويرغم على زهير أنه ليس الحظ ... بل العيب الذى هو فينا ...

فإذا ما سألته ... ما هو هذا العيب

... راح يتخبط ... فيذكر مرة أننا وقوران بطبعنا ... حريصان على احترامنا بحكم النشأة التى نشأنا فيها ... ويذكر مرة أخرى أننا تقليديان فى فننا ... ويجعلنا كل هذا نكسب الاحترام العادى حقا بينما نفقد مواهبنا غير العادية ...

وليس هذا إلا كلاما فارغا ... بل كلاما هزليا يجعلنى أسخر من زهير فى الواقع مهما ساءه ذلك ... أو خدش حياءه

وعثر ذات مرة على حكمة فى أحد الكتب ... وفهم من هذه الحكمة أن الفن الذى لا يمارس إلا داخل محاريب الفن ... كالدين الذى يصبح معطلا لأنه لا يمارس إلا داخل محاريب العبادة ...

ولم أفهم خطر هذه الحكمة فى حينها وأنساه ...

وفهمت الآن ... أنه عندما كان يشهد فى حسرة نجاح بعض «المرتجلين» وصعود نجمهم ... كان قد اتخذ هذه

الحكمة « الفاجعة » شعارا له من رواتي وكم كنت أشير له الى سخرية الناس من هؤلاء الناجحين في واقع الحياة وهو مالا نقبله لأنفسنا لاعتبارات أقلها هو انه ابن مولانا الشيخ موسى «مدرس الخط» .. ولم يكن أبوه من أصحاب الفضيلة حقا .. ولكنه رحمه الله كان كان يعد نفسه كذلك ... ويعدني في الوقت نفسه رفيقا ... بل أمينا على ابنه الوحيد ... فماذا كان ينتظر مني وقد كتب علينا أن نكون من رجال الكوميديا ... هل اتركه لسخر منه الناس في المقاهي والافراح كالمسيط ..

سهرت حتى لاينحدر الى هذا الحضيض ... فاقمت من نفسي حارسا على موالي الفن ..

فكنا مهما اصاب الواحد منا من رضوض بسبب « شقلبة » في دور هنا او هناك ... ما أن ينتهي التمثيل حتى نسرع الى وقارنا وتعقلنا ... فما كان أحد « ولو من اصحاب الفضيلة الحقيقيين يشتبه في أمرنا ...

وحين مثلنا معا هزلية .. (حماتي الحنون) .. واحدث زعتر بمؤخرة رأسي ذلك الورم الشهير في حجم الدومة... حتى خيل الى ان رأسي قد أصبحت في حجم (الشمامة) ، اذ كان يلعب دور حماتي ...

أقول ... ما ان أسدل الستار ... وعدنا الى ثيابنا ولهجتنا العادية ... وما ان أمسكت عصاتي ووضعت غليوني الأثرى بين شفتي حتى عجز أخبث الخبثاء في الحي عن فضح أمرنا ...

ولم يصدق أحد في الحي أن السيدين الوقورين كان احدهما بالأمس حماة متصابية في شعر مصبوغ مستعار ومئزر فوق الركبتين ... ولا أنني كنت عريس غفلة يضع جلبابه داخل سرواله وقد ركب أسفل أنفه شارب من النوع الذي يسمى « شنب جنعة » فأي عيب هذا الذي يدعوه عيبا ... لست ادرى ...

على أنني منذ التحق زعتر بتلك الوظيفة ... شعرت بمدى ما أحدثته تلك الحكمة « المرلحة » في صحته ...

كنت قد مرضت في نهاية الصيف الماضي ... ولما طال بي المرض اوصيته أن يقبل أي دور يعرض عليه بدوني .. لكنه أخبرني أنه لا يستطيع ذلك ولما سألته لماذا ... أخبرني أنه لا لسبب أو آخر أكثر من أنه لن يكون مضحكا بدوني ... وربما لا يفهم أحد ذلك كما أفهم أنا ... ويعلم الله أي مخلوق عكر نكد ... كان كل منا في غياب صاحبه ... حتى ان أمي كانت تسرع اذا ما رأت الشر في عيني وشعرت بالخطر يهدد البيت ... كانت تسرع فتناديه من البيت المواجه ليذهب الشر ويزول الخطر ...

ولما شفيت من مرضي .. دهشت من خفت النشاط الكوميدي بسبب برودة الجو ... أم نسيانا المخرجون ... لكني ألفيت زعتر قد استقر في وظيفته الجديدة ... في عمل لم ألق اليه في حقيقة الامر بالا ... اذ هو عمل كباقي الاعمال الحكومية ... يقوم به رجال في ثياب مناقصة ولي طربية في بهو فسيح

لا يختلف عن غيره الا من حيث حنوه الحزين كأنه المهرج ولما كنت افتقد صديقي ... فقد كان على أن أزوره في هذا المكان .. اذ من الذي استفسر منه كيف نسينا المهرجون ... ومن أتسلى معه على «القرحوارات» التي اصبحت والمعار تحتل مراكزنا .. كما كان لا بد وان انتزع من رأسه تلك الحكمة القديمة التي يمكن أن تعمل في رأسه عملها اذا ما غبت عنه يوما أو يومين ..

وفي الزيارتين أو الثلاث السابقة لاحظت أن شكه في خطنا قد تحول الى شك في كفاءتنا .. كما اصبح يعتقد اننا قد تقدم بنا السن لنكون معاصرين ..

واكتشفت في تلك الزيارات بأن حذرنه من الحكمة العاصمة التي آن الأوان أن يتحلل منها ... اذ لم يضعها بين يديه الا الشيطان الرجيم نفسه .. ونسب كلامه الى التواضع الذي يتسار به الفنانون دون الاصالة عادة ..

اقول حسبت شكه تواضعا لايستحق أن ألقي اليه بالا .. ولكني كنت كمن عرف من أين يدخل الفار دون أن يقطع عليه سبيله ... ولهذا ما أن وجدته في زيارتي السابقة ... وقد بهت حين رآني ... وأخذ يبحث عن الكلام فلم يصدر عنه الا صوت مرعوش ، كأنه ليس صوته ، وراح يلتفت حوله كفار في المصيدة ... أقول ما أن رأيته هكذا ويا للعار حتى عرفت ان هذا الشك هو القضاء المبرم ... بل النهاية الدرامية التي بحثنا لها الخط .. شعرت ان شكه في رسالتنا لم يعد تواضعا بحال بل

اصبح مسحوره من المساخر ... لا يصدر الا عن ، أراجوز ، ...

ويبدو انه كان قد لمح لي أو أشار بطرف خفي الى أنه لا يرتاح لزياراتي له في جو هذه المخربة ، التي اصبح موظفا بها ، والتي لا يعنيني قط أن أعرف أي عمل تكون ... ولكني لانشغالي الجدي بالأحوال العصيبة ... ولانشغالي سرا بتأمل النكت التي يطلقها زملاؤه الجدد وتصنيف نتائجها ... لم افطن الى تلميحه والا اشاراته المتلاحقة .. وما ان قرأت بالامس في جرائد الصباح عن توزيع الادوار في روايتنا (الحساء الجنون) استعدادا لاخراجها في السينما ... حتى جن جنوني ، اسندوا دورنا الى أولئك الجدد ... المهرجين ... الذين لا يصلحون الا لاضحاك الناس في الموالد ... فماذا أعمل ... لمن أذهب ؟ العيت قدماي تسوقاني الى وعتر ... فما أن ذكرته بدورنا المنتظر حتى ذكرني بما قاله لي من قبل ... ولما سألته ماذا قال لي من قبل ... اذا به يفترى علي كذبا ... فيزعم انه نصحني أن نحترم أنفسنا وكأنني لا أعرفه ولا أعرف انه أعجز من أن ينصح برغوثا ... ولما سألته من الذي علمه هذا الكلام ... أخبرني انه قد عثر على هذه الوظيفة ووصل الى هذه المعلومات نفسه ... وأشار الى رأسه ثم أردف ...

كما أن فرق عامين أو ثلاثة بين عمرينا لا يجعله طفلا وقد ابيض شعره وتخلخلت اسنانه ... وآلمني قوله ... أن نحترم أنفسنا حتى لم ألق بالا الى باقي الهراء الذي تفوه به ... فقررت استجوابه قبل أن يحدث مالا تحمد عقباه ...

مسألته ... ان كان أحد قد حرر على أن تتحدثا حروا حتى يقول ... يحترم أنفسنا ... فاجابني اللعين انه لم يرد أن يقوم لي كلاما يسوؤني ... ولكن زيارتي له هنا في جو الوظيفة فتحت عينيه على أشياء ما كان يعرفها من قبل ويبدو انه ظن أنني يمكن ان أتركه وشأنه عند هذا الحد المضحك من علاقتنا .. فلم يفطن الى جدية هذه العلاقة .. التي لم يعد في المدرسية لتغيرها او تفصمها ... وأنني لا يمكن ان اتركه وشأنه حتى ولو وصل بي الأمر الى القيام بالعاب « تجيني الملاحة وتوم العارب وما اليها » .

والقيام بها هنا ... امام زملائه الموقورين ...

لذلك سألته من تحت أضراسي بلهجة الوعيد ...

« هل أخبرتهم هنا أنك حماتي ... وانه برأسي تلك الدومة أثر ضربتك .»

فارتاع المسكين واهتزت أنفسه الكاريكاتورية وقال ...

« أنا ... أقسم لك ... اقسم لك ... »

فصيقت عليه الحناق قائلا « فما بال ذلك الأحمق يخفي ضحكاته في لحيته .. وذلك المرقط هناك يتهامس عني من تحت شاربه ... »

ومضى وعتر في ابعاد الشبهة عن نفسه ... ثم ردد كمن اصابه مس ..

« لا بد أنك لم تشف تماما »

ولما قمت عن مقعدي وضيقت عليه الخناق اذا به يضع سبابته التي تشبه عود الحطب فوق صلعتي وهو يردد كأنه لم يعد يخشى بأسي ...

« يا لله ... أحقا لا تدري ... »

« تساقط شعرك حتى أصبح في مؤخرة رأسك ومع ذلك تحط فيه هذا الفرق ... »

وعجلة انبابت اللعين نوبة من الضحك افقدته احترامه ووسط القاعة المعرنة راح يقهقه كأنس « أراجوز » أمامه .. وصاحبه في ضحكه بعض الحرابي من سكان المكان ... فما أن تلفت اليهم حتى تهدل شاربي وكنت قد برمت طرفيه ورفعتهما بعد جهد جهيد ... وتملكني غضب درامي فاذا بي أخلع القرنفلة البيضاء من عروة جاكتتي وأقذف بها الى الارض ... وكبست فلنسوتي فوق رأسي ... لكن ما أن قبضت على عصاتي حتى تقهقر زعتر واحتمى ببعض زملائه ... وضج المكان بالسخرية ... فأوحى الى حسه والضحك بالذي حدث بعد ذلك .. ولكني لم أستطع أن أناله بعصاتي وأسعاه .. فلما ألفيت نفسي لم أبلغ من تأديبه مأربا قررت أن أصارحه برأيي فيه ... فصحت أنه ليس كوميديا بل ولم يكن في يوم من الايام انما هو مسخة كالقرد ميمون... عندئذ صاحب الضحك من حولي بعض التصفيق ... ودهشت كيف تزايد عدد الحضور من حولي هكذا فكررت له (مسخة) عدة مرات ... ولست ادرى هل نسيت نفسي بعد ذلك أم أعماني الغضب .. اذ لم أستطع صرحه فاذا بي ألقي بعصاتي ... ثم ... ثم ماذا تظن أني فعلت ؟

ماذا تظن !! تشعلبت ...

نعم ... تشعلبت له على الارض .. هكذا دون مسرح .. أو تمثيل ثم أطلقت في وجهه ضحكة ... أية ضحكة ... يالها من ضحكة ...